

ا.د.سعاد هادي حسن الطائي
تاريخ العصر العباسي المتأخر
المرحلة الرابعة

عنوان المحاضرة : الدور الإداري والسياسي
لتركبان خاتون خلال العصر العباسي

مارست ترکان خاتون دورا" اداريا" وسياسيا" واضح المعالم مستندة" في تحقيق ذلك على مساندة أقاربها من قبيلة القنقلي ، فضلا" عن ما تمتعت به من ذكاء كبير وخبرة ودراية كافية في المجالات كافة .

فقد كان لها نفوذ وسلطان كبير على زوجها السلطان علاء الدين تكش وابنها علاء الدين محمد خوارزمشاه وعلى أملاكه وأعيانه بل أصبحت أكثر قوة من ذي قبل لاسيما بعد وفاة زوجها سنة 596هـ / 1199م وتولي ابنها الحكم ، اذ شاركته في مقاليد الحكم .

وقد أشار ابن خلدون الى ان نفوذها بدأ يتسع أكثر منذ تولي ابنها محمد علاء الدين خوارزمشاه الحكم قائلا:"(لما ملك لحق بها طوائف يمك ومن جاورهم من الترك ، واستظهرت بهم وتحكمت في الدولة فلم يملك السلطان معها أمره). ،وهنا اشارة واضحة على نزوح أعداد كبيرة من أفراد قبيلة القنقلي فضلا" عن نزوح عدد آخر من القبائل التركية المجاورة لهم بعد تولي علاء الدين محمد خوارزمشاه الحكم وازدياد نفوذهم أكثر من السابق.

لهذا تمتعت ترکان خاتون بصلاحيات واسعة في البلاد ، فلقد كان لها بلاط خاص بها وأركان لدولتها ولها مطلق الحرية في توزيع واقطاع ما تشاء من الأراضي للمقربين اليها .

فكل منطقة كانت تخضع لسلطة الخوارزميين سواء في عهد زوجها خوارزمشاه علاء الدين تكش أم في عهد ابنها خوارزمشاه علاء الدين محمد كانت ترکان خاتون تصدر أوامرها بتعيين أحد خواصها أو أقاربها حاكما" عليها .وقد أشار ابن خلدون الى ذلك قائلا:"(كانت تولي في النواحي من جهتها كما يولي السلطان).

لهذا فقد كان نفوذها لا يقل عن نفوذ ابنها خوارزمشاه علاء الدين محمد نفسه نظرا " لتأييد قادة الجيش ورجال الدولة ودعمهم لها .فأصبح نفوذها يفوق نفوذ ابنها في بعض الأحيان بفضل دعم أتباعها المخلصين لها من قبيلة القنقلي.

اذ مارست دورا " بارزا" في توجيه السياسة في عموم البلاد خلال هذه المدة ، فتركت أثرا " سلبيا" كبيرا" على مستقبل ابنها لاسيما من خلال ما مارسته من تسلط وجبروت.

اذ لم يكن السلطان علاء الدين محمد صاحب السلطة الفعلية والمطلقة في البلاد ،فقد نافسته ترکان خاتون في ذلك ، ولم يجد علاء الدين محمد خوارزمشاه بدا" من الأذعان لأمرها لأنه من ناحية كان يعد طاعة الأم فريضة عليه ،ومن ناحية ثانية كان معظم أمراء البلاد من أقاربها وخواصها وممن أعانوه في القضاء على الخطأ، لهذا لم يستطع مخالفتهم أو التقصير بحقهم .

لهذا أشار المؤرخ عباس اقبال الى مدى خضوع خوارزمشاه علاء الدين محمد لامه ترکان خاتون قائلا" : (كان خوارزمشاه طوال حياته خاضعا" لرأي ترکان خاتون ..).

وخير دليل على ذلك فأن حدث حادث في أي جهة من جهات الإمارة الخوارزمية أو عرضت مشكلة ما وصدر فيها حکمان متناقضان أحدهما لخوارزمشاه علاء الدين محمد والآخر لترکان خاتون ، نظر في تاريخ كل من الحكمين ونفذ أحدثهما ، وهذا ما أشار اليه النسوي قائلا" : (و اذا ورد عنها وعن السلطان توقيعان مختلفان في قضية واحدة ، ولم ينظر الا في التاريخ فيعمل بالأخير في كافة الأقاليم) ، وهذا الأمر ينافي تماما" ما يجب أن يكون في مثل هذه الأحوال ، اذ لا بد من احترام قرار السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه بغض النظر عن تاريخ الأوامر التي أصدرتها ترکان خاتون لهذا فان نفوذ ترکان خاتون بدأ يتوغل في أركان الدولة مما أضعف هيبة حکامها .

لهذا أضطر علاء الدين محمد خوارزمشاه الى ترك الجرجانية وجعلها مقرا" لأمه تدير منها سلطاتها الواسعة .، لهذا ذكر ان اقليم خوارزم كان من أهم الولايات في الأمانة الخوارزمية التي سيطرت عليه ترکان خاتون .

وقد أشار الجويني الى مدى ما كانت تتمتع به ترکان خاتون من سلطة ودهاء بقوله : (كلما سمعت بملك استولى على مقاطعة أو ولاية استدعته ضيفا" الى خوارزم ، وأغرقتة ليلا" في نهر دجلة وقصدها من ذلك ان يتوسع حكم ابنها السلطان من غير عناء ، وتستمر ادارته من دون غبار).ومما لا شك فيه ان الجويني قد اخطأ عندما ذكر هنا نهر دجلة والمقصود به هنا هو نهر جيحون .

وهذا ما أشار اليه المؤرخ عباس اقبال مؤكدا" رواية الجويني قائلا" : (كانت تلك المرأة على القدر نفسه من الجرأة في سفك الدماء وحب الدنيا ، فأمرء الأقاليم الذين يأسرهم ابنها ويأتي بهم الى خوارزم كانت تأخذهم ليلا" وتلقي بهم في نهر جيحون حتى يقر الملك لابنها دون متاعب) .

وخير دليل على ما كانت تتمتع به ترکان خاتون من نفوذ سياسي وأداري في البلاد هو قدرتها على اقناع ابنها علاء الدين خوارزمشاه محمد على تولية عدد من أقاربها في مناصب ادارية مهمة في البلاد .

* فقد ولي خوارزمشاه علاء الدين محمد اينال جق ،أو " غاير خان " واليا" على مدينة أترار ، وهو أحد أقارب والدته ، وذكر انه ابن خال السلطان علاء الدين خوارزمشاه أي انه كان ابن أخي ترکان خاتون ،في حين ذكر عدد من المؤرخين انه كان خاله .. وهي من أطلقت عليه لقب غاير خان

لهذا عندما أراد علاء الدين محمد خوارزمشاه تسليم غاير خان الى جنكيز خان على أثر قتله لعدد من التجار ممن بعثهم جنكيزخان الى مدينة أترار كان أمرا " صعبا" عليه؛ لان هذا سوف يثير غضب والدته وأبناء عشيرتها وسوف يؤدي ذلك الى اندلاع ثورة عسكرية، وتمرد كبار الجند في الجيش الخوارزمي ضده وممن كان معظمهم من أقاربها ، فضلا" عن اثاره غضب كبار رجال الدولة الذين كانوا هم أيضا" من أقاربها .

وقد أشار النسوي الى ذلك قائلا" : (اذ لا يمكنه تسييره اليه فأكثر العساكر ورتون الأمراء من أقاربه ، وهم كانوا طراز خلته ، ووجه رزمته ، والمتحكمين في دولته).

وكان لترکان خاتون أثر كبير في ابنها علاء الدين محمد خوارزمشاه في تولية خمارتكين التركي الذي كان من أقاربها أيضا" منصب مهم في الجيش الخوارزمي فكان أحد أهم الأعيان فيه.

وكان لها أثر كبير في تولي أخيها طغاي خان قيادة الحامية الخوارزمية في سمرقند.. وولى علاء الدين محمد خوارزمشاه كزلي ،أو" كزلك خان" التركي وهو من أقارب والدته أمنيسابور وفوض اليه معظم أمورها .

وعندما حاول كزلك خان الانحراف عن جادة الصواب، وخلع السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه من خلال الأستقلال في اتخاذ القرارات والسيطرة على الخزائن والأموال ، قرر خوارزمشاه علاء الدين محمد القضاء عليه، فوصلت أخبار ذلك الى كزلك خان فأسرع بالهرب الى بلاد ما وراء النهر ، وحين وصل الى معبر نهر جيحون التقى هناك بعدد من خواص خوارزمشاه علاء الدين محمد ممن كانوا قادمين من خوارزم ، فاشتبكوا معه في قتال عنيف انتهى بهزيمته وقتل من كان بصحبته وأرسل بهم الى خوارزم .

وقد حاولت ترکان خاتون انقاذه من العقاب ووعدته بوعود كثيرة لكنها لم تكن أكيدة ،أو مضمونة .

فطلبت منه أن يرتدي ملابس المتصوفين ومجاورة تربة زوجها السلطان علاء الدين تكش خوارزمشاه ، فلعل ابنها علاء الدين محمد خوارزمشاه يصفح عنه ، فأستجاب كزلك خان لاقتراحها وأرتدى ملابس المتصوفة وجلس بالقرب من تربة زوجها . غير ان علاء الدين محمد خوارزمشاه لم يتأثر بموقفه هذا ولم يصفح عنه فأصدر أوامره بقطع رأسه ونفذت أوامره في الحال وأرسل رأسه اليه . وقد تفاجأت ترکان خاتون من موقف ابنها هذا .

ومن أقارب أمه أيضا ترتبه الذي ولاه علاء الدين محمد خوارزمشاه الشحنة على سمرقند

وكان لتدخلها في تولية عدد من أقاربها في أهم الولايات وأعظمها في البلاد قد فسح لها المجال بشكل أوسع من السابق، وزاد من نفوذها وتحكمها من خلال التأثير على ابنها علاء الدين محمد خوارزمشاه واقناعه في تولية ابنه قطب الدين أزلأق، أو "أوزلاغ شاه" ولاية العهد على الرغم من انه كان طفلاً "صغيراً" قليل الفهم والدراية ترضية" لها

فقد ذكر انه ولاء ولاية العهد على خلاف رغبته لأنه اضطر لتتحية ابنه جلال الدين منكبرتي الذي كان أكبر سناً" منه، اذ كانت ترکان خاتون تفضل أوزلاغ شاه على سائر أخوته والسبب في ذلك يعود الى ان والدته كانت من قبيلة القنقلي التركية ، وأهلها من ذوي النفوذ الكبير ، وكانوا من أهم أعوان ترکان خاتون وأشار المؤرخ محمد بن سعد الغامدي الى ان أم أزلأغ شاه كانت ابنة أخي ترکان خاتون .فضلاً" عن كرهها لجلال الدين منكبرتي وبغضها الشديد له ، اذ كانت تناصب العدااء له لقوة شخصيته وعدم طاعته لها.

ولم تكتف بهذا فحسب بل أقنعت علاء الدين محمد خوارزمشاه بأن يصدر أوامره بتولية ابنه أوزلاغ شاه على ولاية خوارزم ،وخراسان، ومازندران ، غير ان السلطة الفعلية لهذه الولايات قد بقيت بيد ترکان خاتون .

ونتيجة لتحكم ترکان خاتون وأزدياد نفوذها ونفوذ عشيرتها في الدولة منافسة" بذلك نفوذ السلطان نفسه ، كل هذا أدى الى ضعف منصب الوزارة ، اذ أعلن الوزراء عن عصيانهم للسلطان واستبدادهم بموارد الدولة و ثرواتها

فقد تمكنت ترکان خاتون من اقناع ابنها علاء الدين محمد خوارزمشاه بتعيين أحد غلمانها ومن المقربين اليها، وكان يدعى نظام الملك محمد صالح ناصر الدين منصب الوزارة ، وعزل وزيره السابق ، وقد أشار ابن خلدون الى ذلك : (فوزر له على كره من السلطان). ولم يكن خوارزمشاه مقتنعا" به بسبب تجرده من الصفات الخلقية التي يجب أن يتحلى بها صاحب هذا المنصب ، فضلا" عن كونه كان مرتشيا" وغير كفوء ، وليس لديه القدرة على البت في معظم القرارات والأمور التي تعرض عليه . وعلى الرغم من ذلك فقد بقي في منصبه لمدة سبع سنوات مستقلا" في منصب الوزارة.. وتحكم في الدولة بتحكمها ونظرا" لسوء ادارته أصدر خوارزمشاه علاء الدين محمد أوامره بعزله عن منصبه ، اذ أتهم السلطان نظام الملك بالعجز والقصور والأبتزاز. وقد أشار النسوي الى أسباب عزله قائلا" : (انه كان ينقم عليه أحداثا" ويحقد عليه عادات منها شرهه بالبراطيل ، وتعريضه المهام بها للتعطيل ، والمصالح للتبطل . وبالجملة كان الرجل قليل الحظ من أدوات الوزارة ، لم يوجد فيه منها سوى المنظـر ...) .

وأضاف النسوي قائلاً: (وكانت تبلغه عنه بلاغات لا يرتضيها مما يزيد على توبيخ وملام يسمعه على لسان بعض الخواص). وأشار خواندمير الى انه (لم يكن له مثيل في ذلك الوقت في حسن خطه وفرط جوده وكرمه ، ولكنه لم يكن له حظ ولا نصيب من الفضائل الشخصية والكمالات الانسانية ...).
فضلاً عن اتهامه بالتصرف في أموال الـديوان .
فضلاً عن قيام الوزير نظام الملك بأخذ رشوة من أحد القضاة ، وقد أكتشف خوارزمشاه علاء الدين محمد ذلك وأصدر أوامره بعزل هذا القاضي والوزير نظام الملك معاً . وعندما عزله قال له: (ارجع الى باب استاذك). أي يقصد والدته ترکان خاتون .

ومن الجدير بالذكر ان هذه الألفاظ فيها أهانة وتجريح لوالدته ترکان خاتون فتوجه هذا اليها في خوارزم شاکیا" لها ما أصابه على يد ابنها ، فأستاءت كثيرا" من جراء ذلك و ثارت غضبا" عليه، فجعلته محل عنايتها ورعايتها كسابق عهدا به، فاصدرت أوامرها بتعيينه وزيرا" لحفيدها أوزلاغ شاه بن خوارزمشاه علاء الدين محمد وولي عهده

لهذا أشار ابن خلدون قائلا": (فاستمر على وزارتها) ، وذكر انها عهدت اليه بأدارة أملاك أوزلاغ شاه الذي كان يحكم اقليم خوارزم ،فارتفعت مكانته وعظم شأنه في الدولة أكثر من السابق..

وأصبحت أوامره نافذة" مرة" أخرى فيها ، فغضب علاء الدين محمد خوارزمشاه وتضايق من جراء ذلك . والمهم هنا ان نظام الملك قد سار سيرة سيئة في كل ما كلف من مهمات ، اذ قام بنهب أموال البلاد ، اذ قام نظام الملك بالأساءة الى أحد عمال نواحي خوارزم وقيامه بمصادرة أمواله ، فشكا هذا ما أصابه على يده الى علاء الدين محمد خوارزمشاه مما أثار غضبه فقرر تصفيته.. فبعث أحد خواصه وأهم قادته والمدعو عز الدين طغرل الى خوارزم وأمره بقتل نظام الملك وأن يبعث اليه برأسه ، غير ان ترکان خاتون اكتشفت الأمر وأصدرت أوامرها باستدعاء عز الدين طغرل بعد وصوله الى خوارزم وأمرته بالحضور الى الديوان عندما يكون الوزير نظام الملك موجودا" هناك ، وان يلقي عليه التحية بأسم السلطان خوارزمشاه علاء الدين محمد وعلى الملأ

وأجبرته ان يقول : (ان السلطان يقول لي مالي وزير غيرك فكن على رأس عملك ، فليس لأحد في سائر أقاليم الملك أن يخالف أمرك وينكر قدرك).